سلسلة دراسات إسلامية معاصرة
22
اللغة
أنور الجندي
منشورات المكتبة العصرية
صيدا – بيروت

###33### اللغة
اللغة العربية اليوم هي لغة حياة لمائة مليون من العرب، ولغة فكر لألف مليون من المسلمين، وهي لغة قديمة عرفت قبل نزول القرآن بأكثر من ألف عام، قال الخليل بن أحمد في كتاب "العين": إن عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل (12.305.412) كلمة "وهو ما يعني ما يمكن تكوينه بتركيب أحرف الهجاء على كل شكل من الأشكال: الثنائي والثلاثي والرباعي، ويقول أبو الحسن الزبيري: إن عدد الألفاظ العربية " 6.699.400" لفظ لا يستعمل منها إلا "5420" لفظًا والباقي مهمل، ويقول بعض علماء اللغة: إنها تتألف من ثمانين ألف مادة، المستعمل منها عشرة آلاف فقط، والمهجور من ألفاظها سبعون ألف مادة، لم تستعمل إلى اليوم، ولا ريب أن هذه ###34### الإشارات الموجزة تكشف عن وضع اللغة العربية بين اللغات، وعن مكانتها دون حاجة إلى أي عبارة من عبارات الإشادة أو المبالغة في تصوير مكانة هذه اللغة بين اللغات في أبعادها التاريخية وأبعاد حصيلتها اللفظية، فضلا عن ما مرت به من النمو والحيوية في نفس الوقت مما أهلها لأن تكون لغة خاتم كتب المساء، وأن تحفظ هذا الكتاب، وأن يحفظها هذا الكتاب إبان أزمتها التي مرت في القرون الماضية وقد صور هذا المعنى كثيرون من كتاب الغرب، وفي مقدمتهم أرنست رينان الذي يقول: "إن من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، وصعب حل سره: انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذي بدء، فبدأت في غاية الكمال سلسلة أي سلاسة، غنية أي غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومها هذا أي تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامة محكمة، ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى، ومن أغرب المدهشات أن نبتت تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها، نبتت في وسط الصحاري عند أمة من الرحل، ###35### وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم علمت ظهرت لنا في أطوار حياتها، لا طفولة ولا شيخوخة، ولا تكاد تعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى، ولا نعلم شيئًا عن هذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج، وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة، ونستطيع أن نضيف إلى ما قاله رينان: أنها منذ نزل بها القرآن، وانتشرت به أزاحت السريانية والكلدانية والنبطية والآرامية واليونانية والقبطية قبل أن ينقضي قرن واحد، فلما بلغت القرن الثالث الهجري تحولت إليها كل أعمال الدين والدواوين، ثم كتبت بها اللغات التركية والفارسية والأوردية والأفغانية والكردية والمغولية والسودانية والأيجية والساحلية كما كتبت بها لغة أهل الملايو، وقد حدث هذا منذ ألف عام، ثم دخلت اللغات الأوروبية كالفرنسية والألمانية والإنجليزية، وفي اللغة الإنجليزية وحدها أكثر من ألف كلمة عربية.
وما تزال قواميس اللغات الأوروبية تعج بالكلمات العربية، سواء منها ما يتعلق بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو الملاحة.
وهي من الناحية العلمية تفوق أضخم ثروة ###36### وأصواتًا ومقاطع، إذ أن بها 28 حرفًا مكررة، بينما اللغة الإنجليزية 26 حرفًا، ومنها

مكرر، وباللغة العربية ثراء في الأسماء بها 400 اسم للأسد، و 300 اسم للسيف، و 255 للناقة، و 170 للماء، و 70 للمطر. ولقد كتب القصاص المشهور جول فيرن في إحدى قصصه الخيالية عن قوم شقوا في أعماق الأرض طريقًا إلى جوفها، فلما خرجوا سجلوا أسماءهم باللغة العربية، فلما سئل عن سر ذلك قال: لأنها لغة المستقبل.
2- أجرى المطران يوسف داود مطران السريان في الموصل في كتابة التمرنة في الأصول النحوية مقارنة واسعة للغة العربية مع السريانية والعبرانية، وفيها يقول: إن العربية أعرق في الأصالة من جميع اللغات التي يتكلم بها الساميون، وإنها أكملهن وأجمعهن لما فيهن من محاسن، ولذلك تمكنت من اكتساح السريانية والعبرانية. وإبادتهما منذ أجيال، واستولت على جميع بلادها، ورد ذلك التفوق إلى عدة عوامل أهمها: "غناها" واتساع ألفاظها أصلا وفرعًا واشتقاقًا "حتى إننا بغير خوف الخطأ يسوغ لنا أن نقرر أن اللغة العربية أوسع لغات الدنيا المعروفة". أما الخاصية الثانية فهي: أنها أقرب سائر لغات الدنيا إلى قواعد المنطق ###37### بحيث أن عبارتها سلسة طبيعية يهون على الناطق الصافي الفكر أن يعبر بها عما يريده من دون تصنع أو تكلف بإتباع ما يدله عليه القانون الطبيعي.
ويقول أحمد فارس الشدياق: إن لغات الإفرنج لم تزل في ضم الكلام بعضه إلى بعض في حالة الطفولية، أعني: أنهم يوردون جملة بعد جملة اقتضابًا من دون حرف عاطف، وكثيرًا ما يوردون الجمل من دون مناسبة أو ارتباط. والخاصية الثالثة: أن العربية تكتب كما تقرأ، بحيث إن الذي تعلم حروفها وحركاتها يهون عليه بدون مشقة أن يقرأ حيثما شاء، وهذه الخلة قلما تجدها في لغة أخرى، فإن أكثر اللغات من أراد أن يتعلمها فيعد ما يتعلم أوائل كتابتها، يلتزم بأن يتعلم أيضًا قراءتها كلمة كلمة.
ومن الشوائب المستهجنة غاية ما يكون في لغات الإفرنج على العموم اختلافهم في كثير من الحروف الهجائية التي هي عامة لكلهم، فإن الأمم الإفرنجية مع أنها اصطلحت على قواعد ورسوم مطّردة عامة شاملة فيما يختص بالأكل والشرب واللباس وسائر ما يتعلق بالمعيشة الإنسانية مما لا بأس في اختلافه، لم يمكنهم حتى الآن أن يدبروا هذا الأمر العظيم المهم، وهو أن يتفقوا على طريقة واحدة لتصوير ###38### مقاطع الحروف بعلامات عامة لكلهم، فإن اللفظة الواحدة مثل: «Chuce» يلفظها الإيطاليون "كوجا" بالإمالة، والجرمانيون "ختسا" بالإمالة، والفرنسيون "شوس"، والإنجليزية "تشوش" وغيرهم غير ذلك.
ومن ذلك أن اللاتينية، وهي اللغة العلمية لجميع الأمم الإفرنجية، لا يلفظون لفظًا واحدًا، بل كل أمة منهم تلفظها لفظًا مختصًا بها حتى أنه ربما لا يفهم أحدهم عن الآخر. الخاصية الرابعة: أن العربية غنية بنفسها، فهي لا تحتاج إلى لغة أعجمية، ولو أراد أهلها لنفوا جميع الألفاظ الأعجمية التي دخلت فيها بنوع من الخلسة، واستغنوا عنها بغيرها من بحر لغتهم الزاخر.
ومما يستحق الذكر أن العرب لم يتركوا شيئًا، لم يستنبطوا له اسمًا في لغتهم كالمعدة والهواء والجوهر والشخص والأفق وخسوف القمر وكسوف الشمس والصدى والعرش والسفر والشاعر والقصيدة إلى غير ذلك، فإن هذه الأشياء مع كون أكثرها طبيعيًا ومحسوسًا، وما فيها من أخص ما يتعلق بعيش الناس العمرانية، لا تجدها لها أسماء في كثير من اللغات المعروفة،

فاضطر أصحابها إلى أن يسموها بأسماء أعجمية، فإن اللاتين والسريان والجرمانيين وسائر الأمم ###39### الإفرنجية يسمون تلك الأشياء بأسماء يونانية إلا واحدًا أو اثنين منها اتخذوه من اللاتينية، هذا عدا الألفاظ الاصطلاحية المختصة بالعلوم والصناعات، فإن هذه كلها إلا قليلا قد أخذها جميع الأمم من اليونان ما عدا العرب، ومما يتبين من باشروا فنون أدب لغتهم في القرن الأول من تملكهم على بلاد المشرق، نالوا في قليل من الزمان الغاية من ذلك، ومنذ أول مباشرتهم، وضعوا أصول علم النحو، ورسموا اصطلاحاته، وتوغلوا فيه، وتفننوا في دقائقه حتى إنهم في قليل من السنين، أوصلوه إلى غاية الكمال وفي كل ذلك لم يحتاجوا إلى كتب أجنبية، ولا إلى ألفاظ أعجمية، وفي هذه الخلة، قد فاقوا سائر أمم العالم، ويقول الدكتور عبد الكريم جرمانوس: إن أهم المميزات التي تلفت النظر في اللغة العربية هو "ازدواجها" ويقول وليم مرسيه: إن العبارة العربية كالمزهر إذا نفرت أحد أوتاره رنت لديك كل الأوتار، فالعبارة عن المتانة ما لا يبقى معه شيء يحجب مصدرها عن الناطق بها أو المستمع لها، وبذلك كان اللفظ في اللغة العربية يذكرك بالأرومة التي اشتق منها، ولعل هذا الشعور العميق بالمصدر يفوق شعورك باللفظ عينه. ويقول يوهان فك: ###40### "لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد التالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها إلى زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر، وإذا صدقت البوادر، ولم تخطئ الدلائل، فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث لغة المدنية الإسلامية ما بقيت هناك مدنية إسلامية"، ويقول ميليه: إن اللغة العربية لم تتراجع في أرض دخلتها لتأثيرها الناشئ من كونها لغة دين ولغة مدنية. ويشير جوستاف جورنياوم إلى سعة اللغة العربية وقوة بيانها يقول: أما السعة فالأمر فيها واضح، ومن يتتبع جميع اللغات لا يجد فيها لغة تضاهي اللغة العربية، ويضاف جمال الصوت إلى ثروتها المدهشة في المترادفات، وتزين الدقة، ووجازة التعبير. وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من اليسر في استعمال المجاز، وأن ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيرًا فوق كل لغة بشرية أخرى، ولها خصائص جمة في الأسلوب والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف لها نظائر في أي لغة أخرى، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني، وفي النقل إليها، يبين ذلك أن الصورة العربية لأي مثل أجنبي أقصر في جميع الحالات، وأن الفارابي على حق حين يبرر مدحه العربية بأنها كلام أهل الجنة. ويشير جورج سارطون ###41### إلى قدرة العربية على الاشتقاق فيقول: إن خزائن المفردات في اللغة العربية غنية جدًا، ويمكن لتلك المفردات أن تزاد بلا نهاية، ذلك لأن الاشتقاق المتشابك والأنيق يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج إليه كل إنسان على نظام معين، لنأخذ مثلا، الجذر "س ل م" سلم معناها: نجا، سلَّم: حيا، ألقى السلام أو التحية، سالم: دخل في السلم، أسلم: انقاد وخضع، الإسلام: الخضوع لله، تسلم: أخذ شيئًا من يد غيره، السلام: التحية، السلم: خلاف الحرب، سليم: صحيح غير مريض، التسليم: الرضى والقبول، الاستلام: لمس الحجر الأسود. وهناك: مسلم، متسلم، مسالم وغيرها مما يعيا أحيانًا على الحصر.

ويقول بروكلمان: إنه بفض القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة من لغات الدنيا، والمسلمون جميعًا يؤمنون بأن العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة، فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى.
###42### ويقول فان ديك: إنها أكثر لغات الأرض امتيازًا، وهذا الامتياز من وجهين: الأول من حيث ثروة معجمها والثاني من حيث استيعاب آدابها.
ومن شأن هذا كله أن الفصحى عاشت على أزمان حتى أنه لو بعث امرؤ القيس اليوم لاستطاع أن يتكلم، وأن يفهم اللغة العربية، وبيننا وبينه خمسة عشر قرنًا، بينما لا يستطيع الأوروبيون أن يفهموا كلمة واحدة مما قيل قبل أربعة قرون، منذ انفصلت لهجاتهم عن اللغة اللاتينية، وأصبحت لغات مستقلة، وذلك يرجع إلى فضل القرآن، يقول ريجستير بلاشير: إننا كلما درسنا اللغة الفرنسية لاحظنا أنها قد تطورت عبر العصور بحيث نجد لها أطوارًا، فإذا قارنا حالة اللغة الفرنسية في القرون الوسطى، وجدنا أنها مغايرة كل المغايرة للغة المستعملة في القرن السابع عشر، وهذه مختلفة أيضًا عن لغتنا اليوم، فوحدة اللغة الفرنسية لا تتضح إلا بالبحث والمقارنة، في حين أن وحدة اللغة العربية تتضح للقارئ، ولو كان أجنبيًا لأول وهلة، لغة القرآن لا تزال هي لغة اليوم، وهذا ما ميز العربية عن اللغات الأخرى.
ويقول جاك بيرك: إن اللغة العربية هي أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب، بل هي اللغة ###43### العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات، فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا، إن الكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصالة الجزائرية، وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملا قويًا في بقاء الشعوب العربية.
3- حاول الاستعمار والتغريب أن يقول بأن اللغة العربية لغة أمة، هي الأمة – العربية – وأن كل قطر من شأنه أن يكتب لغته، وأن هذا الأمر يستدعي أن يتناول هذه اللغة على النحو الذي يرضاه ويراه محققًا لهذه الغاية، وكان طرح القضية على هذا النحو يحمل طابعًا خطيرًا من التمويه والتزييف والتجاوز. وقد يمكن أن يكون صحيحًا في أي بلد من بلاد العالم، وفي مواجهة أي لغة، ولكنه يصبح عسيرًا جدًا حين يطرح بالنسبة للغة العربية، ولو أن اللغة العربية لم ترتبط بالقرآن والإسلام، لكان يمكن أن يكون هذا القول فيه مجال للنظر، أما وقد أنزل القرآن منذ أربعة عشر قرنًا باللغة العربية، فأنشأ عالم الإسلام الفكري والاجتماعي والديني، فقد أصبح للغة العربية وضع مختلف لا شبيه له في أي لغة أخرى، إذ لم يعد للعرب وحدهم حق التصرف في اللغة العربية، ولم تعد اللغة – العربية – لغة – إقليمية – تخص قطرًا، بل لم تعد الأمة – العربية – نفسها مطلقة الإرادة في ### ###44 التصرف فيها. هذه هي الحقيقة التي واجهت محاولة التغريب والغزو الثقافي منذ قام ولكوكس في مصر وماسنيون في الشام وكولان في المغرب، ثم تابعهم بعد ذلك سلامة موسى والخوري مارون غصن ولويس عوض وغيرهم بمهاجمة اللغة العربية.
إن أخطر ما تمثل اللغة العربية هو أن قارئها اليوم في العقد الثامن من القرن العشرين، يستطيع أن يقرأ ويفهم ما كتب بها منذ القرن الخامس الميلادي أي ما كتب قبل نزول القرآن بأكثر من نصف قرن، أي: أن تراثًا

حافلا قام في خلال هذه الفترة كلها، وأعظمه ما جاء بعد الإسلام بالطبع، هذا التراث هو ملك حر لقراء اللغة العربية، يلمون به إلمامًا صحيحًا؛ وهذا ما لم يتيسر بالقطع لأي لغة في العالم كله اليوم، ذلك أن أي لغة قائمة لا يستطيع قراؤها أن يفهموا من تراثهم إلا ما يجاوز ثلاثة القرون الأخيرة، أما ما يبعد عن ذلك، فإنهم يلتمسون لفهمه المعاجم، إن مرد ذلك هو ثبات اللغة العربية الذي لم يتح لأي لغة أخرى، ومرجع ذلك الثبات إلى نزول القرآن بها وارتباطها به على النحو الذي أنشأ هذه الثروة الضخمة من العلم والتراث والتأليف. ومن هنا أصبح للغة العربية خاصية متميزة لا ### 45### تستطيع اللغات الأخرى أن تشاركها فيها، ولا تستطيع هي أن تجاوزها، تلك هي أنها لغة أمة ولغة فكر ودين، فهي لغة الأمة العربية، وهي في نفس الوقت لغة المسلمين جميعًا، لغة فكرهم ودينهم وصلاتهم، ولغة ذلك الرباط الذي يجمعهم بالتشريع والعقيدة جميعًا، وهو القرآن الكريم.
ومن هنا كان الخطر الوحيد الذي يواجه أهل اللغة العربية، هو أن ينزلوا عن مستوى أسلوب القرآن، فيصبح أسلوبهم قاصرًا عن فهمه وتعمقه، لأن ذلك من شأنه أن يفصل بينهم وبينه، وذلك هو ما تحاوله القوى الهدامة المعادية للعرب والإسلام والتي تدعوهم إلى ما يسمى باللغة الوسطى أو تقريب الفصحى من العامية. أمامنا القرآن وهو المقياس الثابت وعلينا في كل حركة من حركات الفكر والكتابة والبحث أن نقترب منه ونلتقي به، وعلى العامية أن تقترب من الفصحى، وليس الفصحى أن تنزل إلى العامية ولا ريب أن التعليم كفيل إذا اتسعت آفاقه أن يقلل من الحاجة إلى العامية، وأن يزيد الالتحام بالفصحى، والذوق العربي الإسلامي كله متصل بالفصاحة، وفهم الفكر الإسلامي متصل بهذا المستوى من الأسلوب والبيان.
ولقد وهب القرآن اللغة العربية حصيلة ضخمة من ###46### المعطيات الفكرية والاجتماعية من خلال رسالته العالمية التي اتخذت من ألفاظ اللغة العربية ومادتها تشكيلا جديدًا طرح على البشرية منهجًا شاملا من الحياة والفكر والنظر في الكون وبناء المجتمع والأخلاق، وكان هذا هو مصدر دهشة الناس عند نزول القرآن، فقد كانت هذه الألفاظ معروفة لهم بأعيانها، ولكن الإعجاز كان متمثلا في هذا التشكيل الذي تشكلت به فكرًا وأداء في هذه القيم الجديدة التي قدمها، وهذه الصور المتعددة، وهذه الروعة في أسلوب الإقناع والحوار، وهذه المناهج المتعددة في مخاطبة القلب والعقل، ومعنى هذا أن ثروة اللغة العربية، إنما ترجع إلى تشكيلها القرآني الذي أعطاها هذه القوة، وفي نفس الوقت أعطاها الإسلام هذا الاتساع والذيوع، ومن هنا فقد أصبحت صلة اللغة العربية بالقرآن والإسلام صلة عضوية تمثل التجربة الأولى والأخيرة من نوعها في صلة رسالة السماء بلغة من اللغات، ولا ريب أن هذا المفهوم له أثره البعيد في امتلاك المسلمين جميعًا لهذه اللغة، وما يتصل بها من خطأ القول بأن لقطر ما أو لشعب ما القدرة على التصرف في اللغة العربية؛ ومن الحق أن يقال: إن اللغة العربية هي لغة فكر عالمي يضم سبعمائة مليون من المسلمين جغرافيًا ويمتد أربعة عشر ###47### قرنًا في التاريخ والتراث.
4- من أبرز المخاطر تلك المقارنة التي يحاول البعض عقدها بين اللغة العربية واللاتينية:

فقد حرص عدد كبير من المستشرقين أن يصحوا "المسلمين والعرب" بالتخلص من اللغة العربية كما تخلصت الشعوب الغربية من اللغة اللاتينية وتغليب لهجاتهم في كل قطر حتى تصبح كل لهجة منها لغة إقليمية كما فعل الأوروبيون باللاتينية حين أوردوها المتحف، وأقاموا من لهجاتهم لغات هي الفرنسية والإنجليزية والألمانية الحالية؛ ولطالما ألح بعض دعاة التغريب على هذا المعنى، فردده وانخدع به بعض الكتَّاب العرب مع أنه ليس هناك من شبه للمقارنة، بل هناك فوارق عميقة منها:

أولا: إن اللاتينية ماتت كلغة للشعب بموت الدولة الرومانية، وبقيت لغة للكنيسة والعلماء، أما الشعب فكانت اللغة على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفة حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر، ولم تكن اللاتينية لغته الأصلية، وإنما كانت أخرى كالسلبية السكسونية، والجرمانية الهندية التي امتزجت بلغة اليونان، فلم تثبت تلك اللهجات إلا بتمادي الزمان وتنوع الكتبة وفتح المدارس وتأليف الكتب، وساعد ###48### الشعوب في ذلك انفرادهم في أصقاع متنائية دولا مستقلة، أين هذا كله من أمر اللغة العربية؟!.

ثانيًا: إن العربية لغة أمة واحدة تحمل ثقافة وفكرًا ما زال حيًا متفاعلا لم يتوقف أو يجمد ساعة من زمان. وإن هذه الأمة تمتد من المغرب الأقصى إلى جزر أندونيسيا وهي في هذا الزمن الطويل قد ارتبطت بالتاريخ والتراث والقيم أوثق ارتباط، وأثمرت هذا الفكر الإسلامي الذي تضمه ألوف الكتب والمجلدات والمخطوطات المتناثرة في مختلف مكتبات العالم.

ثالثًا: هناك فارق أصيل يعزل كلا من اللغتين عن الأخرى عزلا لا توجد معه حيلة للاجتهاد أو المقارنة، فاللغة العربية لغة تقوم على الاشتقاق، ويتوقف فيها المعنى على حركات التعريف وحركات الإعراب وبين لغة هي: "اللاتينية" تقوم على النحت ولصق المقاطع بعضها إلى بعض بغير دلالة لاختلاف الأشكال والحركات، وقد تفردت العربية – حتى بين اللغات السامية – باطراد الأوزان وقواعد التصريف وقواعد الإعراب، فلا مشابهة بينها وبين اللغات الأخرى في هذه الخاصية.

رابعًا: لم تتعرض العربية بعد أن استقرت في العالم ###49### العربي الحالي إلى هجمات وغزوات لغات جديدة كما تعرضت لها اللغة الرومانية من جراء استيلاء القبائل الجرمانية على مختلف أنحاء أوروبا، كما أن البلاد العربية لم تصب بتفتيت سياسي وإداري واقتصادي مثل ما عرفت البلاد الرومانية في عصور الإقطاع الطويلة، كما أن البلاد العربية لم تنعزل عن بعضها البعض انعزالا يشبه الانعزال الذي حصل في البلاد الرومانية، بل ظل الاتصال بين مختلف أقطارها قائمًا بفضل قوافل التجارة وقوافل الحج التي ظلت تنقل جماعات كبيرة من المسلمين كل سنة من مختلف الأنحاء إلى الحجاز.

خامسًا: إن الإسلام قد التزم العربية الفصحى التزامًا تامًا، وظل يساندها ويؤازرها دون انقطاع، ولم تتخل عنها لهجة من اللهجات في وقت من الأوقات. ذلك لأنها لم تعهد بمهمة القرآن إلى أئمة المساجد وخطباء الجوامع وحدهم، كما فعلت الديانة المسيحية في العالم الروماني بالإنجيل، بل فرضت ذلك على كل مسلم ومسلمة، فصار لزامًا على كل فرد أن يتلو

طائفة من الآيات القرآنية كل يوم خلال الصلوات الخمس، وقد استتبع ذلك إنشاء مدارس وكتاتيب لتعليم القرآن – قراءة وحفظًا – وكل ذلك حال دون انقطاع صلة العرب بالعربية الفصحى التي ظل يذكرهم بها ويوصلهم ###50### إليها على الدوام – القرآن – عن طريق استماع المستمع والتلاوة المتتالية.

سادسًا: إن الفوارق بين لغة الكلام ولغة الكتابة، وبين العامية والفصحى، لم تتعد قط حدود فوارق اللهجات التي لا تحول دون تفاهم أصحابها بشيء يسير من الجهد والانتباه.

5- حوربت اللغة العربية منذ وصل الاحتلال الغربي إلى بلاد الإسلام، وحوربت في البلاد الإسلامية بإيقافها وتنمية اللهجات القديمة واللغات الغربية، فكل مستعمر قد عمد إلى فرض تعليم لغته، أما في البلاد العربية، فقد حوربت اللغة العربية بحصرها في الجوامع والاستعاضة عنها باللغة العامية الدارجة، وكذلك الدعوة إلى إلغاء الحرف العربي والاستعاضة عنه بالحروف اللاتينية، وجرت حملة واسعة بالادعاء لعجز اللغة العربية وإدخال الكلمات العامية إليها، وقد تصدى لهذه الحملات عدد كبير من المفكرين المسلمين والعرب في مقدمتهم علي يوسف ومصطفى صادق الرافعي وأحمد زكي الملقب بشيخ العروبة وعبد العزيز ###51### جاويش ومحب الدين الخطيب والدكتور محمد محمد حسين، وكشفوا زيف هذه المحاولات كلها، وأبانوا عن مقدرة اللغة العربية ومرونتها، وعارضوا كل هذه الشبهات، ومما أورده هؤلاء الباحثون في دحض هذه المؤامرة ما يأتي:

أولا: العامية التي يرى أصحاب هذا الاتجاه استخدامها في الشؤون التي تستخدم فيها العربية الفصحى لغة فقيرة كل الفقر في مفرداتها، فلا يشمل متنها على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادي، وهي إلى ذلك مضطربة كل الاضطرابات في قواعدها وأساليبها ومعاني ألفاظها. ولا ريب أن "أداة" هذا شأنها لا تقوى مطلقًا على التعبير عن المعاني الدقيقة، ولا عن حقائق الآداب والعلوم والإنتاج الفكري المنظم والعامية في لغة ما غير ثابتة على حال واحدة، بل هي عرضة للتطور في أصواتها ودلالتها ومفرداتها وقواعدها، وهي تختلف باختلاف الشعوب، وتختلف في الشعب الواحد باختلاف مقاطعاته.

ثانيًا: تبين أن الحروف اللاتينية لا تصلح لكتابة اللغة العربية، فالحروف العربية ضرورة لازمة لا يمكن العدول عنها، ذلك أن الخط العربي حفظ حتى الآن وحدة اللغة العربية، وإن كان النطق يختلف من قطر إلى قطر، أما ###52### الحروف اللاتينية، فهي مبنية على أساس أن صوت الحروف واحد غير متبدل، أما في العربية فهناك أصوات لكل حرف لا سيما فيما يختص بالحركات ومع تغيير الأصوات واللهجات في العربية على حسب الأشخاص أو على حسب الأفكار.

فإننا نعتبر الخط العربي كفيلا بنقل الألفاظ على وتيرة يفهمها الجميع مع وجود التغيير في الأصوات.

ثم إنه ليس هناك معادلة بين الحروف العربية واللاتينية، فالحروف مثلا في الألمانية والروسية قريبة الشبه باللاتينية، أما في العربية فوجه الشبه بعيد جدًا، وإذا تغير الخط العربي بالخط اللاتيني أصبحت النتيجة خطيرة للغاية، فكيف يكون مصير الكنوز العظيمة التي خلفتها الآداب الإسلامية في الدين

والفقه والعلوم والآداب والفنون وغيرها، وكلها مدونة معروفة بالخط العربي.
ثالثًا: فيما يتعلق بإصلاح اللغة، فقد أشار الباحثون إلى أنها دعوى باطلة، ذلك أن تغيير قواعد اللغة العربية صرفًا ونحوًا، إنما يكون بالوضع والإزالة، وهذا معناه إحداث لغة جديدة بقواعد جديدة، وهذه اللغة العربية الجديدة إن صح اتصالها بالعربية الحالية المعروفة اتصال اللهجة بالأم، فإنها تبعد عنها شيئًا فشيئًا حتى تختفي معالم ###53### الصلات بينهما أو تكاد، وعندئذ تكون اللغة العربية الحالية من اللغات الميتة. وإذا صح أن ننقل التراث العلمي الأدبي القديم إلى اللغة العربية بعد تغيير قواعدها، فماذا نصنع في شأن "التنزيل": الكتاب العربي المبين، وحديث الرسول بأسلوبهما ووضعهما، ولا ريب أن إصلاح قواعد اللغة (نحوًا وصرفًا) معناه خلق لغة جديدة غير لغة القرآن والحديث، وغير لغة الشعر المروى والنثر المهذب، وغير لغة العقلية العربية والإسلامية، ذلك أن قواعد اللغة العربية وضعت طبقًا لنصوص القرآن والحديث والمسموع عن العرب، التغيير في هذه القواعد هجر للقرآن والحديث والمسموع، وهكذا فإن إصلاح اللغة العربية يعني إخراجها عن لغة القرآن والحديث والأدب العربي والعقلية الإسلامية.
6- كثر خلط دعاة التغريب في الحديث عن الفصحى والعامية، ومحاولة الادعاء بأن هناك لغتين، والحق أن هناك لغة واحدة هي اللغة العربية "ولهجة" هي العامية، وأن الفصحى هي اللغة المشتركة بين العرب جميعًا، وأنها هي القوة القادرة على المحافظة على بقاء المستوى البياني بين القرآن واللغة العربية، وأن أخطر الأخطار أن يمس هذا المستوى أو تجري محاولة للانتقاص منه، والمعروف أن اللهجة – العامية - ###54### مسألة مرحلية، وأن الفصحى هي الامتداد الطبيعي للفكر الإسلامي وثقافته، وأن الروائع لا تكتب إلا بالفصحى، وأن العامية إقليمية دائمًا بل أكثر من إقليمية بحيث يكون لكل بلد لهجته، وقد يركز المنهج الغربي الوافد على اللهجات العامية، ويدرسها بعناية، ولمن المحاولة مضللة وغير علمية، يراد القول بأن هناك لغة عامية غير اللغة العربية، وأنها سابقة لها، وأن لها تراثًا من الأمثال والحكم، ولقد عجزت كل هذه المحاولات أن تجعل من اللهجات العامية في البلاد العربية شيئًا، بل إن هذه الآثار التي جمعوها قد كشفت عن عجز العامية عن معالجة الموضوعات الرفيعة، وقد أكد الباحثون بأنه من المحال أن تصل هذه اللهجات العامية مهما ركز الاستشراق عليها وأولاها اهتمامه، من المحال أن تصبح لغات مستقلة مكتملة التكوين صالحة للاستخدام في مختلف شؤون التعبير والكتابة، كما حدث في اللهجات المتفرعة من اللاتينية. ذلك لأن لهجات اللاتينية قد سارت في طريق النمو والرقي بفضل ما كانت تمتصه من أمها اللاتينية من حين لآخر، فضلا عن الجهود التي بذلت لتوسيع نطاقها، وتكملة بعضها وتهذيبها من نواحي المفردات والقواعد والأساليب وتدوين آثارها واستخدامها في الترجمة والتأليف، على حين أن ###55### اللهجات العامية العربية، قد جمدت على أوضاعها الساذجة، ومن هنا فإنه لا سبيل أن تصبح العاميات العربية صالحة لأن تكون أكثر من أداة للتخاطب في

الشؤون العادية دون أن تصلح للكتابة أو لأداء أغراض البيان الأصيل فضلا عن قصورها الذاتي.
7- هناك دعوة مسمومة تحت اسم "تطوير اللغة" وهناك من يفسر هذا فيقول: إنه تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية لا العكس الذي هو من الأمور الطبيعية، وإنما يعني أصحاب هذه الدعوة المريبة التحلل من القوانين والأصول التي صانت اللغة خلال خمسة عشر قرنًا أو تزيد، فإذا تحللنا من القوانين والأصول التي صانت لغتنا خلال هذه القرون المتطاولة، كان نتيجة ذلك هو تبلبل الألسنة وتوسيع رقعة الاختلاف بين الأقطار العربية حتى تصبح عربية الغد شيئًا يختلف كل الاختلاف عن عربية القرآن الأول أو عربية اليوم، وتصبح قراءة القرآن والتراث العربي والإسلامي كله متعذرة على غير المتخصصين من دارسي الآثار ومفسري الطلاسم.
كذلك فلا بد من الإشارة إلى محاولات النفوذ الأجنبي لمقاومة نمو اللغة العربية والتمكين للغات الأجنبية الفرنسية ###56### والإنجليزية على الخصوص فقد قطع الاستعمار الغربي الطريق على توسع العربية بين مسلمي العالم حيث كان من الطبيعي أن يمتد بامتداد الإسلام إلى مختلف المناطق بحسبانها لغة الثقافة والدين.
8- إن أهم ما يركز عليه رجال اليقظة الإسلامية في مجال فهم اللغة العربية، هو أن اللغة هي الوجه الثاني للفكر، وأن كلمات اللغة التي تنطق بها الأمة هي أفكارها وأخلاقها وعقائدها، فكلمات اللغة، علامات وإيماءات، وللغة صلة عميقة بالعقيدة والفكر، فلكل أمة معجمها الخاص المملوء بالكلمات التي تصنعها عقيدتها وقيمتها لتكون أداة اتصال "روحي وأداة تفاهم وتبليغ فيما بينها، ومن حيث إننا عرب ومسلمون، فيجب أن نستوحي مفهوم الكلمات، ولا نستعمل كلمات من غير معجمنا، وعلينا أن نتعلم تعبيرات القرآن، وألا نجعل للكلمة العربية الإسلامية مدلولا خارجًا عن أصولها، وعلينا أن نفكر بلغتنا، ولا ريب أن كلمات الغرب ومصطلحاته لا يمكن فصلها عن ملابساتها الفكرية التي ترمي إليها، ولا يمكن نقلها كما تنقل ألفاظ الاختراعات والعلوم، يقول صادق عنبر: إن لكل أمة شاهدًا من لغتها على ما خطرت عليه من دين ودون لها من ###57### تاريخ، وعرف عنها من نسب ومدنية وفنون، ففقدان أمة لهذه الثروة المعنوية هو اعتراف منها بسفاهتها"؛ والمعروف أن اللغة العربية تعبر عن الفعل والفاعل والزمان في لفظ واحد: "فعل" ليس كذلك الإنجليزية والفرنسية. ويقول الكاتب الغربي فون همبلت: إن لسان أمة جزء من عقليتها، ويقول ماكس مولار: إن الفكر واللغة شيء واحد، وهو يشبهها بقطعة النقد، ويقول: إن ما نسميه الفكر ليس إلا وجهًا من وجهي النقد، والآخر هو الصوت المسموع. ومن المحاولات التي تستهدف إخراج اللغة العربية عن مدلولها الأساسي فرض كلمات غربية تختلف، فكلمة الدين الغربية Religion لا تعني معنى كلمة الدين بمفهوم الإسلام، وكذلك كلمة الزكاة Charité فهي ليست بمعنى الزكاة الإسلامية.
كذلك فإن من المحاذير القول بأن اللغة العربية أساس من أسس العروبة، وفي مفهوم الإسلام: العربي ليس من يتكلم عربيًا، بل من يفكر عربيًا؛ وفي مجال الفكر الإسلامي: إن اختفاء اللغة لا يحول دون بقاء الأمة لأن مصدر بقاء الأمة هو العقيدة، ولقد اختفت اللغة العربية من الجزائر، ولكن

صمود العقيدة حال بينهما وبين الفناء، فاللغة ###58### العربية هي أساس الفكر الإسلامي الذي كتبه ترك وفرس وبربر وعرب فاللغة بمثابة الوعاء الذي تتشكل فيه وتحفظ وينتقل بواسطة أفكار الأمة.
ويقول ابن تَيْمِيَّة: "إن اللغة العربية للإسلام ليست لغة فحسب، ولكنها عقل وخلق ودين، ذلك أن الفكر هو الذي يحفظ وحدة النظر إلى الحياة ووحدة التحرك في مواجهة الخطر، ومن هنا نجد أنه لا يمكن بحال من الأحوال لمسلم أو لغير مسلم أن يعرف حكم الشريعة الإسلامية من مصادره الأصلية إلا إذا كان عالمًا بلغة العرب، وبأساليبها، ومقاييساتها، وكل ما يتعلق بها". من أجل هذا فهم المسلمون الأوائل أهمية اللغة العربية على وجهها، وقاموا بنشرها بكل ما أوتوا من قوة، وفي كل مكان حل الدين حلت مع اللغة لأنها مفتاح الدين، ومن هنا كانت محاولة الاستعمار في حجب اللغة العربية عن البلاد التي اتسع فيها الإسلام حتى تظل عقيدتهم ناقصة لأن كمالها في فهم خصائص اللغة التي هي مصدر الشريعة وزبدتها". وفي هذا يقول الشيخ محمد عبده: "إن إصلاح لساننا هي الوسيلة المفردة لإصلاح عقائدنا، وجهل المسلمين بلسانهم هو الذي صدهم عن فهم ما جاء في كتاب دينهم وأقوال أسلافهم. ففي اللغة العربية ### ###59 الفصحى من ذخائر العلم وكنوز الأدب ما لم يمكن الوصول إليه إلا بتحصيل ملكة اللسان، ولا تحصل هذه الملكة قولا وكتابة حتى يتكلم بها غالب أهلها، ويكتبوا بها الطريقة الصحيحة لأن في انحطاط لغتنا انحطاطًا لنا ولديننا وعقائدنا وأخلاقنا، وانحطاط ذلك مفسد لجميع أمورنا". وقال العلامة محمد أبو زهرة: إن الإسلام لا يمكن فهمه إلا باللغة الفصحى، والقرآن كذلك، ومن هنا كانت محاولة ضرب اللغة العربية الفصحى حتى لا يفهم القرآن، ولكي يندثر كما اندثر الإنجيل العبري، وفي هذا يقول أحد الباحثين الغربيين: إن من حق العرب علينا أن نرفع الصوت عاليًا طالبين إليهم الصمود والمقاومة، فليصمدوا وليقاوموا هذه الدعاية المذلة التي تسول لهم التنازل عن شرفهم وتراث آبائهم.

الأستاذ/ أنور الجندي